المدخل إلى علم الكلام

أولا - تعريف علم الكلام :

توجد عدة تعريفات لعلم الكلام ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، تعريف الفارابى بأنه «ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحمودة التى صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل » (١) .

وأيضا يعرفه الايجى فى المواقف بقوله « علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه ، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل ، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد ﷺ ، فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام » (٢) .

وإذا كان كل من الفارابى والايجى قد جعلا علم الكلام يقوم على نصرة العقيدة الإسلامية دون تمييز بين الفرق الإسلامية ، فإننا نجد ابن خلدون يحصر التعريف فى نصرة الاعتقادات على مذهب السلف وأهل السنة ويخرج باقى الفرق فيقول فى تعريفه علم الكلام « هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة » (٣) ، وهو فى هذا يوافق ما ذهب إليه الغزالى فى المنقذ من الضلال .

ومن هذه التعريفات السابقة يمكننا أن نستخلص أن علم الكلام يقوم على إثبات العقيدة الدينية عن طريق الأدلة العقلية ، فهو بذلك يقوم بتوضيح أصول العقيدة وشرحها وتدعيمها بالأدلة العقلية وبذا يستكمل المؤمن نوران : نور العقل ونور القلب ، وتزول الشكوك والوساوس التى قد تعتريه .

---

(١) الفارابى ، إحصاء العلوم ، تحقيق د . عثمان أمين ، ص ١٣١ .

(٢) الايجى ، المواقف ، ص ٧ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٢٣ .

ولعلم الكلام مهمة دفاعية تتمثل فى رد دعاوى الخصوم المنكرين للعقيدة الإسلامية ، وهؤلاء هم أصحاب الديانات الشرقية القديمة ، أو أصحاب الديانات السماوية المخالفة للإسلام وهى اليهودية والمسيحية ، ويقوم علم الكلام ، بتقويض أدلة أصحاب تلك الديانات وبيان بطلانها ، وذلك عن طريق إيراد الأدلة العقلية التى تبين تفاهتها وسقوطها ، وأيضا الرد على الشبه التى يوردها أصحاب تلك الديانات على العقيدة الإسلامية .

وعلى هذا يمكننا القول بأن لعلم الكلام دور إيجابى فى إثبات صحة العقيدة بالعقل ،ودور دفاعى يقوم بالدفاع عن العقيدة ضد الخصوم المنكرين لها - ولقد تلازم الدوران عبر مراحل نشأة علم الكلام وتطوره ، وليس صحيحا ما يذكر بأن مهمة علم الكلام كانت دفاعية فقط ولم يهتم بتوضيح العقيدة وشرحها [1] . وذلك أننا إذا رجعنا إلى بواكير المباحث الكلامية نجد أنها كانت تدور حول مسائل الإيمان كالبحث عن الموقف من مرتكبى الذنوب خاصة الكبائر ، وهل يخرجون من الايمان أم لا ؟ وجر هذا إلى البحث فى حقيقة الإيمان ، ومن هو المؤمن ، وإلى غير ذلك من المسائل التى تتصل مباشرة بأصل العقيدة ، وفهم كل فريق لتلك الأصول وتوضيحها بالأدلة العقلية ، وهذا يعنى فهم مضمون الإيمان وليس مجرد الدفاع عنه ، ولقد شهد هذا المبحث نشأة أهم الفرق الكلامية وأسبقها وهى المعتزلة وفى نفس الوقت نجد ردود أوائل المعتزلة ومناقشاتهم لآراء الخصوم ، مما يوضح لنا تلازم الدورين معا ، شرح العقيدة وتوضيحها والدفاع عنها .

ويلاحظ أيضا وفقا لهذه التعريفات أنه لابد أن يكون لدى المتكلم القدرة التامة على إثبات العقائد ، إذ أن فى استخدام صيغة « الاقتدار » تنبيه على القدرة التامة وعلى العلم بجميع العقائد ، وما يتوقف عليه إثباتها من الأدلة ورد الشبه ، وكذلك العلم بطرق الأدلة العقلية [2] .

---

(١) د . عبد الرحمن بدوى . مذاهب الإسلاميين ، جـ ١ ص ١٤ .

(٢) التهانوى ، كشف اصطلاحات الفنون ، المجلد ٢٢ .

وأيضا يتضح لنا أن لعلم الكلام موضوعه الخاص به والذى يميزه عن غيره من العلوم ، وهو البحث فى أصل العقيدة لا فى فروعها ، وهذا ما سوف نتناوله .

* * *

ثانيا - موضوع علم الكلام :

لكل علم موضوع يختص ببحثه ، وذلك لأنه لكى يصير العلم علما فلابد له من موضوع ولا بد له من منهج ، ولا بد له من نظريات يصل إلها . وبالنسبة لعلم الكلام فانه كما سبق القول فى تعريفه بأنه يقوم على إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية ، فإن موضوعه يتناول العقيدة الدينية .

والدين يقوم على جملة من الأحكام، بعضها يتعلق بالأمور الاعتقادية ، وبعضها يتعلق بالأمور العملية من عبادات ومعاملات، ولقد وضح ابن خلدون الأمور الاعتقادية بأنها الأمور التى كلفنا بتصديقها بقلوبنا واعتقادها فى أنفسنا مع الإقرار بألسنتنا ، وهى التى تقررت بقول النبى ﷺ حين سئل عن الإيمان فقال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » . وهذه هى العقائد الإيمانية المقررة فى علم الكلام [1] . وهذه الأمور الاعتقادية لا تتعلق بالعمل ، فيذكر الدوانى فى شرحه على العقائد العضدية طبيعة تلك الأمور الاعتقادية مفرقا بينها وبين طبيعة الأمور العملية فيقول : « ما يتعلق الفرض بنفس اعتقاده من غير تعلق بكيفية العمل لكونه تعالى حيا قادرا إلى غير ذلك من مباحث الذات أو الصفات وتسمى تلك الأحكام أصولا وعقائد واعتقادية ، يقابلها الأحكام المتعلقة بكيفية العمل كوجوب الصلاة والزكاة والحج والصوم وتسمى شرائع وفروعا وأحكاما ظاهرة » [2] .

فالدين بذلك يقوم على أصول وفروع ، وعلم الكلام يتناول أصول الدين ، فى مقابل الفقه الذى يتناول الأحكام العملية ، ومبحث علم الكلام هو ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ، وبعث الرسل وأحكام الآخرة [3] .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٢٧ .

(٢) الدوانى، شرح العقائد العضدية، ص٥ . (٣) الايجى ، المواقف ، ص ٧ .

ولقد ذكر القاضى الأرموى موضوعات أخرى تتعلق بالبحث فى صفات الله تعالى وأفعاله كحدوث العالم ، فيقول : موضوع علم الكلام هو ذات الله تعالى إذ يبحث فيه عن عوارضه الذاتية التى هى صفاته الثبوتية والسلبية وعن أفعاله إما فى الدنيا كحدوث العالم ، وإما فى الآخرة كالحشر وعن أحكامه فيهما كبعث الرسل ونصب الإمام فى الدنيا من حيث إنهما واجبان عليه تعالى أم لا ، والثواب والعقاب فى الآخرة من حيث إنهما يجبان عليه أم لا [١] .

وعلم الكلام يبحث فى العالم من حيث دلالته على الله تعالى ، فيذكر الخوارزمى فى بيان أصول الدين التى يتكلم فيها المتكلمون ، وأولها القول فى حدوث الأجسام والرد على الدهرية الذين يقولون بقدم الدهر ، والدلالة على أن للعالم محدثاً وهو الله تعالى والرد على المعطلة[٢] .

ويلاحظ أن المباحث الطبيعية عند المتكلمين ليست بقصد تفسير العالم ، وإنما القصد منها إثبات أن العالم حادث وليس قديما ، وهو فى حاجة إلى من يحدثه . أى من حيث دلالة العالم على وجود الله تعالى ووحدانيته .

ويلاحظ أن مبحث الإمامة التى ذكرها التهانوى وغيره على أنه من المباحث الكلامية ، لا يلق اتفاقا من جميع المتكلمين فى ضمه إلى مباحث علم الكلام ، فعلى سبيل المثال نرى « ابن الهمام » فى « المسايرة » يرى أن مبحث الإمامة ليس من موضوعات علم الكلام ، بل هى من المتممات [٣] . وأيضا يرى الآمدى أن مبحث الإمامة ليس من أصول الدين بل من فروعه [٤] .

* * *

ثالثا - تسمية علم الكلام :

أطلقت عدة تسميات على ذلك العلم الذى يتناول أصول الدين ، فلقد

---

(١) التهانوى . كشف اصطلاحات الفنون ، جـ ١ ص ٤٧ .

(٢) الخوارزمى ، مفاتيح العلوم ، ص ٢٧ .

(٣) ابن الهمام ، المسايرة ، ص ٥

(٤) الآمدى ، ابكار الأفكار (مخطوط) ص ٢٨٩ .

سماه أبو حنيفة بالفـقه الأكبر ، من حيث إنه يتعلق بالأحكام الاعتقادية الأصلية ، فى مقابل علم الفقه الذى يتعلق بالأحكام الفرعية العملية .

وفى شرح العقائد النسفية يسميه التفتازانى علم التوحيـد والصفات ، فيذكر أن « العلم المتعلق بالأحكام الفرعيـة - أى العملية - يسمى علم الشرائع والأحكام ، وبالأحكام الأصلية أى الاعتقادية يسمى علم التوحيد والصفات »[1] .

وهذه التسمية تقوم على شرف ذلك العلم وعلو منزلته ، إذ أنه يتناول الأصول الاعتقادية التى تبنى عليها الفروع ، وهو بذلك رأس العلوم الإسلامية إذ إليه تنتهى هذه العلوم ، وفيه يبين مباديها وموضوعاتها .

وقد يسمى بعلم أصول الدين ، من حيث إن موضوعه يتناول أصول الدين ، وهى الإيمان بالله تعالى ووحدانيته تعالى ، وصفاته وأفعاله ، والإيمان بالوحى وإرسال الله تعالى للرسل والإيمان بالبعث ، والثواب والعقاب فى الآخرة ، وتلك أصول الدين .

ونقد أطلق المتكلمون الأوائل على مؤلفاتهم الكلامية هذه الأسماء ، فمؤلف أبو حنيفة سماه الفقه الأكبر ، ومؤلف الماتريدى عنون باسم التوحيد ، ومؤلف البزدوى عنون باسم أصول الدين ، وكذلك البغدادى .

والمشهور هو تسمية ذلك العلم بعلم الكلام ، وذلك لعدة أسباب ، منها أن مسألة الكلام الإلَهى كانت أشهر مباحثه ، فسمى الكل باسم أشهر أجزائه ، وأيضا سمى بعلم الكلام ، لأنه يورث قدرة على الكلام ، فسمى به تسميته للسبب باسم المسبب ، وأيضا لأن نسبة هذا العلم للعلوم الإسلامية ، كنسبة المنطق إلى الفلسفة فسمى بالكلام ، وذلك حتى تقع المخالفة اللفظية بين الاسمين وأيضا لأنه أول ما يجب من العلوم ، والكلام سبب لتعليم العلوم وتعلمها فكان سببا لها فى الجملة ، وأيضا لأن مباحث هذا العلم مباحث نظرية . فهو يبحث فى الأمور الاعتقادية التى لا يندرج تحتها فعل ، أما الفقه

---

(١) التفتازانى ، شرح العقائد النسفية ، ص ١٠٠ .

فهو يبحث فى أحكام عملية يندرج تحتها فعل ، وعلى هذا فالكلام مقابل الفعل ، والمتكلمون قوم يقولون فى أمور ليس تحتها عمل ، فكلامهم نظرى لفظى لا يتعلق به فعل ، بخلاف الفقهـــاء الباحثين فى الأحكام الشرعية العملية .

وقد يسمى بعلم الكلام بما رواه جلال الدين السيوطى فى ذم أهل البدع وهم الذين يتكلمون فى أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان (١) .

ويبدو من هذه التسميات أنها اشتقت من أهم مباحث هذا العلم التى يبحثها ، فسمى تارة بأصول الدين من حيث تناوله لأصول الدين بالبحث ، وتارة سمى بالتوحيد من حيث إن الأصل الأول الذى يقوم عليه الدين هو وجود الله تعالى ووحدانيته ، وتارة يسمى علم الكلام وذلك من أشهر مسميات ذلك العلم ، وقد ترجع تلك التسمية إلى أهم الموضوعات التى تناولها هذا لعلم وهو كلام الله تعالى ، وإما أنها ترجع إلى فائدة ذلك العلم، إذ أنها تعطى لصاحبها القدرة على الكلام فى أصل الدين ، وإما لمنهجه العقلى واستخدامه للعقل بجانب النص ، وإما لطبيعته النظرية من حيث اتصاله بالنظر المجرد الذى لا يتصل بالعمل .

وبالرغم من تعدد إطلاق الأسماء على ذلك العلم ، إلا أن المشهور فى تسميته هو علم الكلام .

* * *

(١) مصطفى عبد الرازق ، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ، ص ٢٦٥ - ٢٦٨ .